الإلياذة الإسلامية

لأحمد محرم

١

كلنا نعرف أن الشعر العربى شعر غنائى ، فهو قصائد قصيرة مهما طالت لا تتجاوز مائة بيت ، وإن طالت فلا تطول إلى أكثر من مائتين أو ثلاث ، كما هو الشأن عند ابن الرومى . وهو يُعَدّ شذوذاً على ذوق العرب ، لأنهم لا يعرفون كل هذا الطول لقصيدتهم ، بل إن القصيدة قد تقصر عندهم حتى تصل إلى سبعة أبيات ، وقد تقصر أكثر من ذلك ، فتصبح مقطوعة ، وما أكثر مقطوعاتهم ومنظوماتهم القصيرة .

وهذا القِصَرُ فى القصيدة العربية ليس خاصًّا بها دون قصائد الأمم الأخرى ، بل هو سمة عامة ، ولكن فى أى شعر ؟ فى هذا الشعر الذى يتحدث فيه الشاعر عن عواطفه وإحساساته ومشاعره ، والأمم الغربية كلها تعرف هذا اللون من الشعر الذى يتغنى فيه الشاعر خواطره الذاتية من حب وغير حب .

وتعرف هذه الأمم بجانب ذلك لوناً من الشعر التعليمى ، ونجد له أمثلة كثيرة فى لغتنا ، كما تعرف لونين آخرين هما الشعر القصصى والشعر التمثيلى ، ولم يعرف العرب اللون أو النوع الأخير لسبب بسيط ، وهو أنه لم يكن عندهم مسرح ، ولا عرفوا التمثيل ولا الحوار الطويل الذى يسوقه أشخاص مختلفون فى عمل أدبى واحد .

والعرب كذلك لم يعرفوا الشعر القصصى الذى عرفه الغربيون ، لأنهم ذاتيون فى شعرهم ، لا ينفكون عن بواطنهم ودخائلهم ، ولا يتصلون بمحيط غير محيط

أنفسهم . أما ذلك المحيط الواسع للظروف والأحداث من حياة أمتهم وما التحمت فيه من حروب ، وما اضطرب فى هذه الحروب من عواطف وأفكار ، وما تحدَّثَ به معاصروها من سير بطولة وأبطال ، فإن ذلك كله لا يعنى شاعرها ولا يهمه ، إنما يهمه أن يصف ما يحسه ، وأن يتغنى بمشاعره فى سرعة وعجلة ، وبدون رَيْث ولا أناة .

فالشاعر العربى لا يعرف النظرة الشاملة لحقائق مجتمعه ونفوس الناس من حوله ، ولا لحقائق التاريخ وما يصوره من هذه الدائرة الواسعة من حياة أمته . ومن هنا لم يفكر لا فى شعر تمثيلى ، ولا فى شعر قصصى ، لأن ذلك يؤدى به إلى عَرْض الحقائق الكلية ، وهو إنما يُعْنَى بالحقائق الجزئية ولا يكاد يُلم بحقيقة كلية حتى يحولها إلى حقيقة تجريدية فى مَثَل أو حكمة . فلم يتعدَّ دائرته الشخصية المقفلة ، ولا دفعته أمواج خارجية بعيداً عنها .

وهذا من شأنه أن يعزله إلى نفسه ، ويفصله عن كل ما يجرى حوله من تاريخ وغير تاريخ ، وهو إن اتصل به لم ينفذ فيه نفوذاً عميقاً ، بحيث يصل إلى أغواره ، أو بحيث يقصر نفسه عليه ، وينفخ فى بوقه إلى نهايته . إنه لا يعرف إلا نفسه وذاته وحقيقته ، وهو ينفخ بكل جهده فى هذا البوق الكبير ، غير مهتم بشىء سوى شخصه وأحاسيسه .

وكان من مظاهر ذلك عند شاعرنا أن نَفَسَه فى شعره لا يطول ، بينما الشاعر القصصى عند الأمم الأخرى يطول نَفسُه طولا مسرفاً ، حتى تتجاوز قصيدته مئات الأبيات ، بل حتى تتجاوز الألف والألفين والثلاثة ، بل حتى تصبح آلافاً عشرة أو أكثر . وكأنّ الشاعر العربى لم يكن يعجبه أن يكتب هذا العدد الضخم من الأبيات ، أو قل إنه كان يعيش فى إطار نفسه الداخلى ، الذى لا ينفحه إلا بالأبيات القليلة والقصيدة القصيرة .

وليس بصحيح أن العرب لم ينظموا شعراً قصصياً لأنه لم تكن عندهم حرب كحرب طروادة تلك الحرب التى ألهمت هوميروس قصيدتيه الطويلتين : الأوديسة والإلياذة ، وقد بلغت الأخيرة نحو ستة عشر ألفاً من أبيات

الشعر القصصى صوّر فيها ما كان من أحداث فى السنة الأخيرة من تلك الحرب . ليس يصحيح أن العرب يفقدون فى تاريخهم حرباً هائلة كهذه الحرب ، فقد كانت لهم قديماً حروبهم بينهم وبين الفرس كما فى موقعة ذى قار ، وكانت لهم حروبهم الداخلية الرهيبة كما فى حرب البسوس ، ثم كانت لهم حروبهم الإسلامية فى الشرق والغرب ، وكان لهم فيها أبطال لا يقلون عن « أخيل وهكطور » بطلى إلياذة هوميروس فتكا وشجاعة .

إنما هو الشاعر العربى الذى لم يتعدّ غالباً حدود نفسه ، ولم يشأ أن ينظم سوى أغنياته التى يعبر فيها عن لحظة له هنيئة وأخرى حزينة . وقد تعرّض بعض الشعراء لكتابة التاريخ أو فصل منه بالشعر ، على نحو ما هو معروف عن ابن عبد ربه فى نظمه لحروب عبد الرحمن الناصر ، ولسان الدين بن الخطيب فى نظمه للتاريخ حتى عصره شعرا ، وكثيراً ما نظمت سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وقصتا إسرائه ومعراجه .

ولكن أكثر هذا كله ليس من الشعر القصصى فى شىء ، وإنما هو أشبه مايكون بنظم المتون ، إذ تحصى المعلومات التاريخية إحصاء ، على نحو ما يحصون فى متون الشعر التعليمى قواعد العلوم ، فهم ينظمون الحوادث فى أسلاك من الشعر ، وقلما يضيفون روعة من خيال ولا تمثلا صحيحاً لحقائق التاريخ وما اندمجت فيه من متناقضات ، أو لمع على جبينها من بطولة وأبطال .

ومثل هذا النظم إنما يدخل فى الشعر التعليمى ، ذلك الشعر الذى يسوق المعارف ويحشدها فى غير قصد إلى إثارة للخيال أو إثارة للمشاعر ، فهو شعر يخاطب العقل وركن المعرفة الهادئة فيه ؛ ويستمد من الذاكرة لا أحلاماً ، وإنما حقائق عارية لا تلبث أن تتحول أمام من يعرفها إلى ما يشبه الثرثرة المملة ، إذ لا تزيد على أنها سردٌ لوقائع معينة .

٢

لم تعرف العربية إذن الشعر القصصى بمعناه الغربى ، وإنما عرفت ضروباً من نظم التاريخ تشبه أن تكون متونًا للحفظ والتسميع . وما زال هذا شأننا حتى اتصلنا بأوربا وآدابها فى القرن الماضى ، واطلع شعراؤنا على الملاحم الكبيرة عند القوم ، فتمنوا لو حاكوها أو لو نقلوها إلى لغتهم .

ولم يلبث سليمان البستانى أن نقل إلياذة هوميروس إلى لغتنا شعراً ، وبذلك رأى شعراؤنا تحت أعينهم هذا اللون من الشعر القصصى ، ورأوا ما يجرى فيه من حروب وحوادث مثيرة تدور حول أبطال اليونان وطروادة . ومعروف أن الإلياذة نُظمت من وزن واحد لم تخرج عنه ، وأن الأسطورة تجرى فى ثناياها ، وأن الآلهة كانت تتدخل فى الحرب ، فتارة تنصر اليونان وتارة تنصر طروادة .

ففيها خيال واسع وفيها حلم مثير ، وفيها حوادث خارقة ، وكل هذا يعرض فى لغة فخمة . وقد حاول سليمان البستانى أن ينقل كل ذلك إلى العربية وأدى فيه جهداً مشكوراً ، وإن لم يلتزم فى عمله وزنًا بعينه .

وما زال شعراؤنا يتطلعون إلى مجاراة هذا العمل ومحاكاته ، حتى نهض أحمد محرم يحقق لهم الأمل المنشود ، فاختار حروب الرسول صلى الله عليه وسلم موضوعًا لإلياذته أو ملحمته الإسلامية . وتحتفظ دار الكتب المصرية بنسخة مصورة منها ، ونراه يقسمها فصولا ، وكثيراً ما يقدم للفصل بقطعة نثرية يوضح فيها موضوع القصيدة التالية ، سواء اتصلت بغزوة أو بحادثة من حوادث السيرة الزكية وهو يفتتحها بقوله :

امْلأ الأرضَ يا محمدُ نورا ... واغمر الناسَ حكمةً والدهورا
حجبَتْك الغيوبُ سرًّا تجلَّى ... يكشف الحُجْبَ كلها والستورا

صبَّ سيلُ الفساد فى كل واد ... فتدفَّقْ عليه حتى يغورا
جئتَ ترمى عُبابَه بعُباب ... راح يطوى سيوله والبحورا
يُنقذ العالم الغريقَ ويحمى ... أمَ الأرض أن تذوق الثُّبُورا
زاخرٌ يشمل البسيطة مَدًّا ... ويَعُمُّ السبعَ الطباقَ هديرا
أنت معنى الوجود بل أنت سرٌّ ... جَهل الناس قبله الإكسيرا
أنت أنشأت للنفوس حياةً ... غَيَّرتْ كل كائن تغييرا
أنجب الدهرُ فى ظلالك عصرا ... نابه الذكر فى العصور شهيرا
كيف تجزى جميل صنعك دنيا ... كنتَ بعثًا لها وكنت نشورا
ولدتْك الكواكبُ الزُّهرُ فجرا ... هاشميَّ السنا وصبحًا منيرا
يصدع الغيهب المجلَّل بالوَحْـ ... ـى الملقَّى ويكشف الديجورا
منطق القدرة التى ترهق القا ... در عجزًا والعبقرىَّ قصورا
خرَّتِ العُرْبُ من مشارفها العل ... يا تُوَالى هُوِيَّها والخدورا
أنكر الناسُ ربَّهم وتولوا ... يحسبون الحياة إفكا وزورا
تلك أربابهم أتملك أن تن ... فع مثقال ذرة أو تضيرا
مالدى «اللات» أو «مناة» أو «العُـ ... ـزَّى» غَناءً لمن يقيس الأمورا
جاء دينُ الهدى وهبَّ رسول اللّـ ... ـه يحمى لواءه المنشورا

واستمر يتحدث فى هذا الفصل عن جهاد الرسول وبلائه ، وكيف ضرب الكفر فى نحره ضربة لم يقم بعدها أبداً ، يشد من أزره أصحابه وأنصاره . وتحدث عن قريش وأعداء الله ورسوله ، وكيف صدوا عن سبيله ، وما كان من إرسالهم عمه أبا طالب إليه ، وعرضه الملك والمال عليه ، فقال قولته المشهورة : « والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر أو أموت دونه ما تركته » . فهو صاحب رسالة كلفه إياها ربه ذو الجلال ، وأمره أن يبلغها الناس ، وهو صادع بأمره ، حتى ينحر الوثنية فى بلاده ، بل فى

العالم من حوله ، ويحطم أصنامها تحطيماً .

ويعود المسلم بذاكرته ليشاهد صور الجهاد ، بل قل الكفاح بين الرسول وعشيرته . وتتبعه صفوة منها ، ولكن تبقى الكثرة وتستخدم ، وخاصة طغاتها ، كل أسلحتها ضده ، وتبلغ تباشير هذا النور المحمدى المدينة ، فيطلبه نفر منها ويعاهدونه أن يجاهدوا معه فى سبيل دعوته وأن يموتوا من دونه ، فيهاجر إليهم . ويقص علينا «محرم» فى فصل ثان هذه الهجرة ، وكيف استخفى الرسول بغار مع صاحبه أبى بكر ، وكيف عميت عنه عيون المشركين ، حتى إذا أمنهم تابع هجرته إلى أن نزل فى ضاحية المدينة المسماة «قُباء» فرفع بها المسجد المبارك ، وصلى فيه الصلاة التى شرعها ربه ، والتى تشفى نفوس المسلمين وتغسل عنهم أوضار الحياة وشرورها كلما ألم بهم أذى أو مَسَّهم ضر ، فهى بلسم جراحهم ، وهى الينبوع الدائم لسعادتهم . وينهض الرسول عليه السلام من قباء إلى المدينة ، فينشد «محرم» :

أقْبِلْ فتلك ديارُ يثربَ تُقبلُ ... يكفيك من أشواقها ما تحملُ
القوم مذ فارقت مكة أعينٌ ... تأبى الكَرَى وجوانحٌ تتململ
يتطلعون إلى الفجاج وقولهم ... أفما يطالعنا النبىُّ المرسل
أقبلتَ فى بيض الثياب مباركا ... يُزْجى البشائر وجهك المتهلل
خَفَّ الرجال إليك يهتف جمعهم ... وقلوبهم فرحا أخفُّ وأعجل
انظرْ بنى النجار حولك عكَّفا ... يَردُون نورك حين فاض المنهل
لم يُنزلوك على الخئولة وحدها ... كلٌّ المواطن للنبوة منزل
نزلوا على الإسلام عندك إنه ... نسبٌ يعم المسلمين ويشمل
ما للديار تهزها نشواتها ... أهى الأناشيد الحسان ترتَّل
رَقَّت نضارتها وطاب أريجها ... وترددتْ أنفاسها تتسلسلُ
فكأنما فى كل مَغْنًى روضةٌ ... وكأنما فى كل دارٍ بلبل
هُن العذارى المؤمنات أقمنه ... عيداً تحيِّيه الملائكُ من علُ
فى موكبٍ لله أشرق نوره ... فيه وقام جلاله يتمثل

جمع النبيين الكرامَ فآخذٌ بيد الإمام وعائذٌ يتوسل
يمشي به الروحُ الأمين مسلّماً وجبينه بفم النبي مقبّل

وانطلق «محرم» فى هذا الفصل يتحدث عن استقبال أهل المدينة للرسول، وكيف كان يود كل منهم صادقاً أن يحط رحاله عنده، فيضم هذا النور إلى بيته وصدره ، وكيف تلطف الرسول ، فألقى حبل ناقته على غاربها ، وترك لها أن تختار هى مُناخها ، حتى لا يألم أحد من مسلمى المدينة ، فيظن أن النبى يؤثر عليه أخاً له ، وما كان يعرف الإيثار بين أنصاره وأصحابه . وما زالت الناقة تسير ، ويسير الركب من خلفها ، ودفوف النساء تضرب ، وهن يغنين هذه الأغنية المشهورة : (طلع البدر علينا من ثنيات الوداع) . وتوقفت الناقة وتوقف الركب ، أو قل : توقف الموكب السعيد بفناء بيت أبى أيوب الأنصارى ، وسقط البدر فى حِجْره : فيا للبشرى ويالسعادة العظيمة وهنيئاً له ولأهل بيته .

ويُفيض « محرم » فى ضيافة الأنصار للمهاجرين وما بذلوه لهم ، فقد شاطروهم بيوتهم وأموالهم ، وأنزلوهم من نفوسهم منازل كريمة . وباركت يد الرسول هذه الأخوة الصادقة ، ووثقت عُرَا تلك المحبة الصافية فى الله ودينه :

هى الأواصرُ أدناها الدمُ الجارى فلا محالة من حُبٍّ وإيثار
الأسرةُ اجتمعت فى الدار واحدةً حُييّت من أسرة بوركت من دار
مشى بها من رسول الله خيرُ أبٍ يدعو البنين فلبّوا غير أغمار
تأكد العهد مما ضم ألفتهم واستحصد الحبل مُن شدٍّ وإمرار
كل له من سَراة المسلمين أخ يحمى الذمار ويرعى حرمة الجار
يطوف منه بحقٍّ ليس يمنعه وليس يعطيه إن أعطى بمقدار
يجود بالدم والآجالُ ذاهلةٌ ويبذل المال فى يُسرٍ وإعسار
هم الجماعة إلا أنهم برزوا فى صورة الفرد فانظرْ قدرةَ البارى

صاحَ النبي بهم: كونوا سواسيةً ... ياعصبة الله من صَحب وأنصارِ
هذا هوالدين لاماهاج من فِتَنٍ ... بين القبائل دينُ الجهل والعار

ويعرض « محرم » للجاهلية ومآثمها ومظالمها، وأن الرسول جاء يدعو بالحق ودين الهدى . ثم يعقد فصلا يسلك فيه المنافقين مع اليهود ، ويذكر كيف أن الأخيرين نقضوا ما بينهم وبين الرسول من عهود ، ويُوسع الطرفين جميعاً قدحاً وثلباً لما نقموا من الله ورسوله .

ونحن لا نريد أن نسارع إلى الحكم على الإلياذة الإسلامية بهذه الأشعار التى قدمناها ، لأنها قد تُعد تمهيداً لموضوعها الأساسى ، وهو وصف الكفاح الذى عاناه الرسول وأصحابه وأنصاره فى حرب المشركين ومن كفروا بأنعم الله فشهروا رماحهم وسلوا سيوفهم فى وجهه ووجه رسوله .

ولم يقص « محرم » كل وقائع الرسول وغزواته، فقد اختار أهمها من مثل غزوة بدر الكبرى وغزوة أحد وبنى النضير ودَوْمة الجندل وبنى قريظة والخندق، تلك الغزوات التى يلمع وميضها فى جبهة الإسلام ، ويتألق لألاؤها فى قلوب المسلمين . ويكفى أن نعرض من الإلياذة غزوة بدر الكبرى أمّ تلك الغزوات جميعاً ، ليتضح لنا صوت « محرم » فى شعره القصصى على أضواء أتم وأكمل ، وهو يستهلها على هذا النمط :

ما للنفوس إلى العَمَاية تجنحُ ... أتظن أن السيف عنها يصفحُ
داويتَ بالحسنى فلجَّ فسادُها ... ولديك إن شئت الدواء الأصلح
الإذنُ جاء فقل لقومك أقْبِلوا ... بالبيض تبرق والصوافن تَضْبَحُ
أفيطمع الكفار أن لا يؤخذوا ... بل غرهم حلمٌ يُمد ويفسح
أمنوا نكالك فاستبد طغاتهم ... أفكنت إذ تُزْجى الزواجر تمزح
ظمئتْ سيوفك يا محمد فاسقها ... من خير ماتُسْقى السيوف وتنضح
اليوم توردها الدماءَ فترتوى ... وتردها نشوى المتـــون فتفرح

المشركون عَمُوا وأنت موكَّلٌ ... بالشرك يُمْحَى والعماية تمسحُ
خذهم ببأسك لاترعك جموعهم ... فلأنت إن وزنوا الكتائب أرجح
ضَلو السبيل وفى يمينك ساطعٌ ... يهدى النفوس إلى التى هى أوضحُ

ثم يتحدث عن أبى سفيان بن حرب وكيف أن قومه بعثوه فى تجارة إلى الشام ، فلما اقترب من المدينة خرج الرسول فى طلبه ، وعلم أبو سفيان ، فأنبأ قومه أن ينفروا لإنقاذه وإنقاذ تجارته أو قافلته ، فكانت هذه الموقعة التى سالت فيها دماء المشركين من قريش أعداء الله أنهاراً . يقول «محرم»:

ذهب ابن حَرْبٍ فى تجارة قومه ... ولسوف يعلم من يفوز ويربحُ
نَسْرٌ مضى متصيِّداً ووراءه ... يومٌ تُصاد به النسور وتذبحُ
بينا يَحيد عن السهام أصابه ... نبأ تصاب به السهام فتجرح
بعث ابن عمرو : مالكم من قوة ... إنْ ما لكم أمسى يُلِمُّ ويكسح
واها قريشٌ إنه الدم فاعلموا ... من دون بيضكمُ يراقُ ويسفح
إنى صدقتكمُ البلاغَ لتعلموا ... وجبال مكة شُهَّدٌ والأبطح
جفلتْ نفوسُ القوم حتى مالها ... لُجُمٌ تردّ ولا مَقاود تكبح
نفروا يريدون القتـــال وغرَّهم ... عبثُ اللواتى فى الهوادج تنبح
غنَّتْ بهجو المسلمين وإنهـــا ... لأضلّ من يهجو الرجال ويمدح
الضاربات على الدفوف فإن همُ ... ضربوا الطُّلَى فالنادبات النوَّحُ

وهو يشير بالضاربات اللواتى فى الهوادج إلى فرقة النسوة العازفات اللاتى كن يصحبن جيش قريش ، يصحنَ فى الرجال ويحمِّسْنَهُم ويبعثنهم على القتال . ولهن أغان تذكرها كتب الأدب والتاريخ .

ويتقدم «محرّم» فيصف حَشْدَ الرسول لجيشه وما أعده لوثنيى مكة من سيوف الله المسلولة ، مثل مصعب بن عمير صاحب اللواء ، وسعد بن أبى وقاص ، والمقداد ، وعلى بن أبى طالب ، ويصور احتدام الموقعة واشتداد

أوارها ، وكيف كان قلب الرسول معلقاً بأصحابه وأنصاره ، وهم من حوله ، وعلى رأسهم أبو بكر صفيه وخليله ، يذودون عن عريشه وكرسيه :

جدَّ البلاء وهبَّ إعصار الرَّدَى ... يرمى بأبطال الوَغى ويطوّحُ
نظر النبي فضجّ يدعو ربه ... لاهُمَّ نَصرَكَ إننا لك نكدح
تلك العصابة ما لدينك غيرها ... إن شدَّ عادٍ أو أغار مُجلِّح
لا هُمَّ إن تَهلك فما لك عابدٌ ... يغدو على الغبراء أو يتروَّح

و« محرم » يشير بذلك إلى ما يروى عن الرسول ، من أنه كان يدعو ربه فى هذه المعركة قائلا فى بعض دعائه : اللهم إن تَهلك هذه العصابة اليوم لا تُعبَد فى الأرض أبداً . ونرى الشاعر يحشد أسماء بعض الأبطال الذين خاضوا الواقعة ، ثم يصف كيف استجاب الله لرسوله ، فأنزل عليه من السماء كتيبة من الملائكة الأطهار ، كانت تضرب مع المؤمنين فوق أعناق الكفار ، وعلى كل بَنان :

الله أرسلَ فى السحاب كتيبةً ... تَهفو كما هفت البروق اللمَّحُ
جبريلُ يضرب والملائك حوله ... صفٌّ تُرَضُّ به الصفوف وترْضَح
للقوم فى أعناقهم وبنانهم ... نارٌ تريك الداء كيف يبرّح

ولم يلبث المشركون أن ولّوا الأدبار ، وهم ينادون بالويل والثبور ، فقد قطعت رءوسهم ، ومزقت أجسادهم ، ولم يبق بينهم بطل أو شجاع إلا سفكت دمه الرماح ، ونهشت لحمه السيوف :

أودى بعتبةَ والوليـــد وشيبةٍ ... وأمية القدَرُ الذى لا يُدْرَح
وَهوَى أبو جهل ونوفلُ وارعوى ... بعد اللجاج الفاحشُ المتـــوقّح

فهؤلاء أشراف مكة : أبو جهل وعتبة وابنه الوليد وشيبة بن ربيعة وأمية ابن خلف ونوفل بن خويلد ، كل هؤلاء ذاقوا عاقبة كفرهم وعنادهم ، ورُدَّ

كيدهم إلى نحورهم . أما المسلمون فأعزهم الله وأعز رسوله وأيده بنصر من عنده . ويحدثنا « محرم » عن صدى الواقعة فى مكة فيقول .

ما أكثرَ الباكين ملء جفونهم ... للجمع بالبيض البواتر يصْدَعُ
جزّ النساء شعورهن وغودرتْ ... للحزن منهن الدموع الهمَّع
رَجَّعْن مكروه العويل على أسى ... والبيتُ يشدو والحطيمُ يرجّع
والمسلمون بنعمة من ربهم ... فيهـا لكل موحّد مستمتعُ
الله أكبرُ لا مَرَدَّ لحكمه ... هو ربنا وإليه منا المرْجع

وبذلك تنتهى هذه الغزوة فى الإلياذة ، وتعقبها الغزوات الأخرى فى هذه الصورة من الشعر الذى يسجل الغزوة وأهم حوادثها وأبرز أبطالها وأشهر مواقفها .

٣

وأكبر الظن أنه قد اتضح لنا الآن صوت « محرم » فى هذه الإلياذة بكل سماته وخصائصه ، فهو لا يكتب ملحمة كالملحمة التى كتب فيها «هوميروس» إلياذته ، وإنما يكتب أو قل ينظم سيرة الرسول . وفرق بين نَظم السِّير والشعر القصصى ، ذلك لأن الأول عمل آلى ، فالشاعر يقرأ التاريخ ثم يحوله شعراً ، أو قل يحوله نظماً ، وهو لذلك لا يعالج حرباً ولا ملحمة بعينها ، وإنما يعالج سيرة مطولة فيها الحرب وفيها غير الحرب .

ثم نفس هذه الإلياذة الإسلامية كما سماها «محرم» لا تتناول حرباً واحدة من حروب الرسول ، وإنما تتناول مجموعة كبيرة من حروبه ، وهى تقف عند كل حرب فتعرضها علينا عرضاً تاريخياً صادقاً ما أمكن . فيكون تاريخ ولكن لا يكون شعر ، ولا يكون شاعر له انطلاقاته الواسعة . ومن أين يكون الشعر والشاعر قد حدد نفسه بحقائق التاريخ يحصيها فى إيجاز بالغ ، حتى لكأنه يؤلف

متناً من متون التاريخ ، فلا شرح ولا حاشية من خيال وحلم يمثل لنا مشاهد الموقعة ، وكأنها تبعث من جديد بتفاصيلها ، إنما هى المشاهد نفسها تصاغ من جديد نظماً .

ولا يُطلب من الشاعر القصصى أن يشوه التاريخ أو يحرّفه ، ولكن يُطلب منه أن يمثل حقائقه لا كما هى فى الواقع بالضبط ، ولكن كما تبدو فى خياله وفى خبراته ، فإذا سار على الصراط التاريخى ، ولم ينحرف يميناً ولا شمالا فإنه حتماً يسقط دون غايته .

وهل يمكن أن نعد ما قرأناه لمحرم إلياذة أو شعراً قصصياً ، إنما هو قصائد جُمع بعضها إلى بعض وسميت إلياذة ، ولن يغير الاسم من مدلولها الحقيقى شيئاً ، فهو اسم لا يطابق مسماه ، لا من حيث الشكل ولا من حيث الموضوع . أما من حيث الشكل فإن الشاعر لم يقترح على نفسه وزناً معيناً ينظم فيه إلياذته ، بل ظن البحور كلها ملكاً له ، يتنقل بينها كيف يشاء .

وهذا هوميروس لم ينظم الآلاف المؤلفة من إلياذته فى حرب طروادة كلها التى ظلت عشر سنوات طوالا ، وإنما نظمها فى حوادث سنتها الأخيرة ، وفسح لخياله فى العدو والانطلاق ، فإذا هو يعطينا هذا العمل الخالد ، ولست أقصد الحقيقة التاريخية كما هى ، وإنما أقصد حقيقة فنه التى لا تنحرف بالتاريخ ولا تختلف معه ، ومع ذلك فهى أروع منه ومن حقائقه الجافة .

وهل من شك فى أن إلياذة «محرم» جافة جفافاً شديداً ، وأنه لم يستطع أن يدخل على التاريخ المرقم فى سيرة الرسول الزكية حياة وجمالا ؟ إنها لا تزال كما هى فى كتب السيرة ، لولا أن خصائصه كشاعر غنائى تظهر من حين إلى حين ، ولكن الكثرة يظل فيها التاريخ ، ويظل الإحصاء ، وتظل الأرقام ، يظل كل ذلك كما هو بدون أى تعديل أو اختلاف .

وهناك أدلة كثيرة على أن محرماً لم تكن له موهبة الشاعر القصصى لا من حيث إنه جمع سيرة الرسول عليه السلام كلها فى مجموعة من القصائد الجافة ،

وإنما أيضاً من حيث إنه لم يستغل الفرص التى واتته فى هذه السيرة، ليلعب خياله وينشط ذهنه . ومن الفرص الذهبية التى ضيَّعها فرصةُ الإسراء والمعراج ، وقد أكثر المسلمون من الكتابة فيهما والقصص حولهما شعراً ونثراً . ومعنى ذلك أنهما كنزان عظيمان لصُنع مادة قصصية ضخمة ، ولم يحاول شاعرنا أن يحتكر لنفسه شيئاً من هذه المادة .

وحتى الفُرَص الكبيرة التى ألمّ بها فى إلياذته أدمجها إدماجاً فى شعره ، ولم يستطع أن يستخلص منها شيئاً لنفسه ولخياله ، ومن هذه الفرص القيمة كتيبة الملائكة التى نزلت فى غزوة بدر ، وحاربت فى صفوف المسلمين . وهو حقّاً ذكرها فى ثلاثة أبيات !. وكان يستطيع أن يضيف إلى صفوف المشركين كتيبة إبليس وجنوده من الشياطين . ومثل هذه المعركة كانت تستحق قصيدة طويلة بل إلياذة كإلياذة هوميروس التى كانت تحارب فيها الآلهة منتصرة مرة لليونانيين ومرة للطرواديين ، غير أن خيال « محرم » لم يكن مؤهلا بحال لكى ينظم شعراً قصصيّاً أو يكتب إلياذة .

وحتى سيرة الرسول لم يدرسها دراسة منظمة ، ولذلك تظل السيرة فى الكتب والأشعار القديمة أروع من شعره . ونفس هذه القصائد التى صاغها حول غزوات الرسول ومعاركه ليست شيئاً جديداً ، فليس هو أبا عُذرتها ، ولا هو فاتح بابها ، فالسيرة النبوية منذ أملاها ابن إسحاق تكتظ بالشعر الذى نُظم فى وقائع الرسول وحروبه ، نظمه حسان وغير حسان ، ولو أن باحثاً جمع لنا هذا الشعر مرتباً حسب التاريخ لاستوتْ لنا منه إلياذة أجمل وأبدع من إلياذة محرم ، لأصالة شعرها واتصاله المباشر بالحوادث ، مما يجعله ينبض بالحيوية الدافقة .

والخلاصة أن إلياذة «محرم» ليست، كما يُظَنّ ، حدثاً جديداً فى أدبنا، بل هى عمل مسبوق ، وإن من الخطأ أن نسميها أو يسميها صاحبها إلياذة ، وإنما هى مجموعة من القصائد فى سيرة الرسول وغزواته . وهى أشبه ما تكون

بالقصائد الغنائية ، ومع ذلك فغنائيتها ضعيفة ، إذ ليس فيها مشاعر مثيرة ، ولا صور حية ناضرة ، فلا تقرؤها حتى تحس أنها زاخرة بالفتور ، وسرعان ما يملؤك السأم والملل . وهى لذلك شىء بين الشعر الغنائى والشعر التعليمى الجاف ، الذى يسرد عليك مجموعة من المعارف فى أعداد وأرقام ، أما الشعر القصصى فليس فيها منه شىء . لأنها تفقد أهم أركانه وهو الخيال القوى النافذ ، الذى يقص عليك الأسطورة أو الحادثة التاريخية ، فيجعلك تستشعرها وتلمسها بكل تفاصيلها وجزئياتها لمساً قوياً ، حتى لكأنها تُحفَرُ فى ذهنك حفراً .